



مَعْرَكَةُ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُقْصِرِينَ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

خطبتنا بعنوان: مَعْرَكَةُ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ

أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا الْأَجِبَةُ فِي اللَّهِ: نَعِيشُ فِي زَمَنِ تَتَدَاوَعُ فِيهِ الْفِتْنُ تَدَاوَعُ الْأَمْوَاجِ؛ فِتْنٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فِي الْعَقِيدَةِ وَالْأَخْلَاقِ، فِي الْإِعْلَامِ وَالسِّيَاسَةِ، فِي الْبُيُوتِ وَالطَّرِيقَاتِ وَالشَّاشَاتِ. زَمَنٌ يَخْتَارُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: مَنْ مَعَ الْحَقِّ؟ مَنْ مَعَ الْبَاطِلِ؟ مَنْ تَنْصُرُ؟ مَنْ تُعَادِي؟ مَاذَا نُصَدِّقُ؟ وَمَاذَا نَرُدُّ؟

وَفِي وَسَطِ هَذَا كُلِّهِ، أَحْطَرُ مَا يُسْتَهْدَفُ فِي الْإِنْسَانِ لَيْسَ مَالُهُ وَلَا جَسَدُهُ، بَلْ قَلْبُهُ وَعَقْلُهُ وَوَعْيُهُ؛ هَذَا الْمِحْلُ الدَّقِيقُ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ النَّجَاةِ أَوْ الْهَلَاكِ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

(رواه مسلم)

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

هُنَا نَفْهَمُ - رَحِمَكُمُ اللهُ - أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ الْمَلِكُ فِي الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ الْعَقْلَ وَالْجَوَارِحَ جُنْدٌ وَأَلَاتٌ تَخْدُمُ هَذَا الْمَلِكَ. إِنْ كَانَ الْقَلْبُ سَلِيمًا نَقِيًّا، اسْتَعْمَلَ الْعَقْلَ فِي الْخَيْرِ، فَيَتَفَكَّرُ الْعَقْلُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَنُصْرَةِ الْحَقِّ، وَخِدْمَةِ الْخَلْقِ.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾

[الحج: 46]

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[الشعراء: 88-89]

عَنْ مُحَمَّدِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مُعْرَضُ الْفِئْتِ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ، عُوْدًا عُوْدًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكْتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكْتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدٌ مُرْبَادًا، كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ».

(رواه مسلم)

مَعْنَى ذَلِكَ - أَيُّهَا الْأَجِبَةُ - أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَفْتَحِمُ الْقَلْبَ بَعْتَهُ، وَلَكِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ قَلِيلًا قَلِيلًا؛ خَبْرٌ، فِكْرَةٌ، صُورَةٌ، مَقْطَعٌ، مَجْلِسٌ سُوءٌ، كَلِمَةٌ اسْتِهْزَاءٌ بِالِدِينِ، شُبُهَةٌ فِي عَقِيدَةٍ، تَسَاهُلٌ صَغِيرٌ فِي حَرَامٍ؛ فَإِنْ قَبِلَهَا الْقَلْبُ، جَاءَ الْعَقْلُ يُزَيِّئُهَا وَيَبْحَثُ لَهَا عَنْ تَبْرِيرٍ، وَإِنْ أَنْكَرَهَا الْقَلْبُ، اسْتَعَانَ بِالْعَقْلِ عَلَى رَدِّهَا وَتَمْيِيزِهَا.

هُنَا تَرَى أَنَّ مَعْرَكَتَنَا فِي هَذَا الزَّمَنِ لَيْسَتْ فَمَقَطٌ مَعْرَكَةٌ شَهَوَاتٍ تَسْتَهْدِفُ الْأَجْسَادَ، بَلْ هِيَ مَعْرَكَةٌ قُلُوبٍ وَعُقُولٍ وَوَعْيٍ؛ قَلْبٌ يَتَلَقَّى، وَعَقْلٌ يُجَلِّلُ، وَوَعْيٌ يُمَيِّزُ؛ فَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ، فَسَدَ التَّحْلِيلُ، وَضَاعَ التَّمْيِيزُ.

الْعُلَمَاءُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقُلُوبِ: قَلْبٌ سَلِيمٌ، وَقَلْبٌ مَرِيضٌ، وَقَلْبٌ مَيِّتٌ.

قَلْبٌ سَلِيمٌ: حَيٌّ بِذِكْرِ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ الدُّمُوعِ، سَرِيعُ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ، يَبْغِضُ الظُّلْمَ وَالْفَسَادَ، يَخَافُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. هَذَا الْقَلْبُ يُتَّبِعُ عَقْلاً مُسْتَنْبِئاً، يَسْتَعْمِلُ الْعِلْمَ فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ وَخِدْمَةِ الْخَلْقِ.

وَقَلْبٌ مَرِيضٌ: فِيهِ إِيمَانٌ وَلَكِنْ فِيهِ أَمْرَاضٌ؛ يُصَلِّي وَلَكِنْ يُصَارِعُهُ الْهَوَى وَالشَّهْوَةُ وَالشُّبُهَةُ؛ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَكِنَّهُ يَضْعُفُ عَنِ اتِّبَاعِهِ؛ هَذَا الْقَلْبُ يُتَّبِعُ عَقْلاً مُتَرَدِّدًا؛ يَوْمًا مَعَ الْحَقِّ وَيَوْمًا مَعَ الْهَوَى.

وَقَلْبٌ مَيِّتٌ: عَافِلٌ، لَا يُبَالِي بِحَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ، لَا يَتَحَرَّكُ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَلَا يَتَأَلَّمُ لِمَا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ، يَرَى الظُّلْمَ فَلَا يَهْتَرُ، وَيَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ فَلَا يَخْشَعُ؛ هَذَا الْقَلْبُ يَسْتَعْمِلُ الْعَقْلَ فِي تَرْبِيبِ الْبَاطِلِ، وَتَسْفِيفِ الْحَقِّ.

فَانظُرْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَيُّ قَلْبٍ تَحْمِلُ؟ وَمَعَ أَيِّ قَلْبٍ تَسْتَعْمِلُ عَقْلَكَ؟ أَمَعَ قَلْبٍ سَلِيمٍ يُتَوَزَّرُ الْعَقْلُ، أَمْ مَعَ قَلْبٍ مَرِيضٍ يُرَاوِعُ، أَمْ مَعَ قَلْبٍ مَيِّتٍ يُبْزِرُ الْعَقْلَ إِلَى خِدْمَةِ الْهَوَى؟

السُّؤَالُ الْعَمَلِيُّ: كَيْفَ نُصَلِّحُ الْقَلْبَ، وَتَقْوَى الْعَقْلَ، وَتَرْبِيعَ مَعْرَكَةِ الْوَعْيِ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ؟ أَوَّلًا: بِتَرْبِيَةِ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ بِالْإِكْتِنَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ. ثَانِيًا: بِتَغْذِيَةِ الْعَقْلِ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الرَّاشِدِ. ثَالِثًا: بِتَرْبِيَةِ مَعْرَكَةِ الْوَعْيِ؛ أَنْ نَتَعَلَّمَ كَيْفَ نَقْرَأَ الْأَخْبَارَ وَالْأَحْدَاثَ بِنُورِ الْقُرْآنِ لَا بِنُورِ الْقَنَوَاتِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، الْعَالَمُ الْيَوْمَ يَرَى فِي فَلَسْطِينَ وَعِزَّةَ، وَفِي لُبْنَانَ، وَفِي إِيرَانَ، وَفِي بِلَادٍ أُخْرَى، ظُلْمًا وَعُدْوَانًا؛ يَشْهَدُ قَصْفًا وَحِصَارًا وَقَتْلًا لِلْأَبْرِيَاءِ، وَاسْتِخْفَافًا بِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

هَذَا تَبْدَأُ مَعْرَكَةَ الْوَعْيِ: قَلْبٌ حَيٌّ يَتَأَلَّمُ لِهَذَا الظُّلْمِ، وَعَقْلٌ مُسْتَنْبِئٌ يَعْرِفُ مَوَازِينَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَوَعْيٌ يُدْرِكُ أَنَّ مَا يَجْرِي لَيْسَ صِرَاعًا عَلَى خُدُودٍ فَقَطْ، بَلْ هُوَ صِرَاعٌ بَيْنَ مَشَارِيعَ؛ مَشْرُوعِ عُدْوَانٍ وَاسْتِكْبَارٍ، وَمَشْرُوعِ حُرِّيَّةٍ وَعِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ. وَقَلْبٌ مَيِّتٌ لَا يَهْتَمُّ، يَرَى كُلَّ هَذَا فَيَعْتَبِرُهُ «أَخْبَارًا» تَمُرُّ كَمَا جَاءَتْ، لَا تُحَرِّكُ فِيهِ إِيمَانًا وَلَا ضَمِيرًا.

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ فِي اللَّهِ، نَحْنُ مُطَالِبُونَ فِي مَعْرَكَةِ الْوَعْيِ بِأُمُورٍ: أَنْ نُنَبِّتَ قُلُوبَنَا عَلَى مَحَبَّةِ الْحَقِّ وَالْكَرَاهِيَةِ لِلظُّلْمِ، وَأَنْ نَتَحَرَّى الْمَعْلُومَةَ الصَّحِيحَةَ، وَأَنْ نَجْعَلَ مَوَاقِفَنَا وَكَلَامَنَا وَخِيَارَاتِنَا فِي صَفِّ الْحَقِّ، وَأَنْ نَجْمَعَ بَيْنَ إِصْلَاحِ الدَّاتِ وَنُصْرَةِ الْقَضَايَا الْكُبْرَى.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُلُوبَنَا سَلِيمَةً، وَعُقُولَنَا مُسْتَنِيرَةً، وَأَنْصُرْ إِخْوَانَنَا فِي فَلَسْطِينَ وَعَزَّةَ وَلُبْنَانَ وَسَائِرِ الْمُسْتَضْعَفِينَ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ